الدكتور عبد الهادي الفضلي



مفاهيم إسلامية حول

أدب الدعوة ومنهج الدعاة

مقالات مختارة

أدب الدعوة ومنهج الدعاة

الدكتور عبد الهادي الفضلي

مفاهيم إسلامية حول

أدب الدعوة ومنهج الدعاة

مقالات مختارة

الدكتور عبد الهادي الفضلي

منشورات لجنة مؤلفات العلامة الفضلي

صدرت هذه الطبعة بمناسبة إقامة المأتم التأبيني وقراءة الفاتحة على روح **الفقيد آية الله الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي**، وذلك عقيب ارتحاله إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين الموافق ٢٧/ جمادى الأولى/ ١٤٣٤هـ = ٨/ أبريل (نيسان)/ ٢٠١٣م.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ
يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

الطبعة الأولى

لجنة مؤلّفات العلاّمة الفضلي **١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م**

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما ارتقى الإنسان بفكره وثقافته، كان ذلك دافعًا له للتفكير فيما هو عالٍ لشخصه ولمجتمعه ومحيطه. وغالبًا ما ترتقي المجتمعات برجالها الطامحين المتطلّعين للمستقبل بأملٍ ورؤية نافذة وبصيرة واعية.

وقد حفلت مجتمعاتنا الإسلامية ـ بتنوّعاتها المختلفة ـ بالعديد من هؤلاء الرجال الطامحين والطليعيين، الذين شكّلوا ـ بمجموعهم ـ أهم رجالات الإصلاح والنهضة في عصرنا الحاضر.

وفي عصرنا الحاضر يعدّ **العلاّمة الفقيد الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي** ﷺ أحد روّاد الإصلاح الذين تعددت مجالات الريادة لديهم في أكثر من موقع وفي أكثر من بقعة. وقد خسرت الأمّة بفقده العالم والمفكّر والمجاهد والمصلح والمربّي والمؤمن العابد، وذلك بعد عمر مليء بالعطاء الفكري والثقافي امتد لأكثر من ستين عامًا، بدءًا من رحلته إلى مدينة

النجف الأشرف سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م وحتى إصابته المرضية التي أقعدته، فقضى سنواته الأخيرة مثالاً للمؤمن الصابر المحتسب الشاكر.

وقد ارتأيتُ ـ وقد وافاني نبأ رحيله المؤلم وأنا بعيد الشقّة عن مشاركة المؤمنين ألم المصاب والفقد ـ أن أشارك بنشر بعضٍ من تراثه النجفي الذي مثّل الغرس لمشروعه العلمي والفكري الواسع الذي بلغ إلى وقت كتابة هذه السطور أكثر من سبعين كتابًا وأكثر من مئة مقالة ودراسة، بالإضافة إلى عشرات التقديمات وإجازات الرواية وعشرات المحاضرات والمشاركات التوعوية والثقافية.

وما بين دفتي هذا الكتيب عبارة عن مقالات تعدّ من بواكير ما نشره في مرحلته النجفية، ولذلك لا يخفى انطباع لغتها العلمية بالروح الثورية الخطابية، ويعود ذلك إلى الظرف الزماني الذي كتبت فيه، حيث انطلاقة الحركة الإسلامية السياسية في العراق، وأوج الصراع بينها وبين المدّ الشيوعي في ذلكم الوقت، وقد آثرت نشرها لما فيها من طرح إسلامي أصيل يتناسب والعرض الجماهيري العام، وتخليدًا لها بعدما اندثرت مع بقية تراثه النجفيّ القيّم.

رحم الله الفقيد السعيد رحمة الأبرار، وأنزل عليه شآبيب الرحمة والمغفرة والرضوان، وحشره مع محبيه من آل البيت عليهم السلام، وجزاه لقاء ما قدّم للدين والأمة خير الجزاء.

حسين منصور الشيخ
بلومنغتون، ولاية إنديانا الأمريكية
٣٠/ ٥/ ١٤٣٤هـ: ١١/ ٤/ ٢٠١٣م

الفصل الأول

منهج الدعوة في الإسلام

- مع الدعاة المسلمين
- أسلوب الدعوة إلى الإسلام
- حول أساليبنا في الدعوة

مـع الدعاة المسلمين(*)

الدعاة المسلمون أمام مشكلتين:

أ) الواقع الذي يواجهه الداعية

إن الكثير من الناس، بمن فيهم الكثير من العلماء والسياسيين والاقتصاديين وغيرهم، يعتقدون بأن الصراع الفكري الحاضر قائم بين مبدأ ونظامين فحسب، بين المبدأ الشيوعي والنظامين الرأسمالي والاشتراكي غير الشيوعي.

والحقيقة أن الصراع قائم بينه وبين مبدأ الإسلام، وبين نظامي الرأسمالية والاشتراكية غير الشيوعية.

وإخال أن الذين أقصوا الإسلام عن ميادين الصراع يجهلون أن الإسلام مبدأ (عقيدة ونظام)، وليس (دينًا) فقط ـ حسبما يفهمون من

(*) مجلة الأضواء، العدد ١، السنة ١، ١٥ ذو الحجة ١٣٧٩هـ.

الدين ويوحي به تعريفهم له بأنه: «علاقة بين الإنسان وربّه»، ويعنون أنه: «عقيدة وتعبُّد»، ويضربون مثلاً بالدين المسيحي أو «دين الكنيسة»، ثمّ يعممون الحكم بالآخرة على كلّ دين.

وهذا هو الذي تبنته السياسة الرأسمالية المستغلّة لمفهوم الدين لتضع مخدّرها القاتل: «الدين لله، والوطن للجميع»، وعليه سارت الاشتراكية المتطرّفة.

أما الشيوعية، «فهي تلغي الحقائق الأبدية، وتلغي الدين والأخلاق عوضًا عن تحديد شكلهما»؛ لأن الدين في رأيها: «أوهام برجوازية تستر خلفها مصالح برجوازية»، لتخدير الشعوب ـ كما جاء في (البيان الشيوعي)، وكما صرّح به واضع أيديولوجيتها (كارل ماركس) بمقولته المعروفة: «إن الدين أفيون الشعوب»[1].

وما هذه المقولة النابية في تعبيرها من الشيوعية إلا لتضع مخدرها المميت لحرية الفكر في الإنسان، وهو: (إن الدين أفيون الشعب)، إذ تحاول بهذا أن تركز القاعدة لسياسة النفع: (الغاية تبرر الواسطة)، لئلاّ تفشل ـ كالرأسمالية ـ في محاربتها للدين.

ولكنها ـ هي الأخرى ـ جاءت لتحصد الأوهام، كأنها لم تعلم أن

(١) قال (هنري لوفافر) في كتابه (كارل ماركس)، ترجمة محمود عيتاني ونشر دار بيروت ودار صادر، ط ١٩٥٩م، ص١٦: «كتب ماركس في أحد مؤلّفاته الأولى: (المساهمة في نقد فلسفة الحقوق عند هيجل): إن الدين أفيون الشعب».

في الأديان دينَ الإسلام، المبدأ الشامخ الصامد الذي تتحطّم على صخرته القوية الصلدة المتماسكة كل قوة أو فكرة لا تعترف بقيمة الإنسان وبكرامته.

وبهذا التفسير الأيديولوجي لمفهوم الدين، جعلوا من الإسلام في نظر المسلمين البسطاء الفارغين من ثقافة القرآن «مخدرًا» و«علاقة فردية خالصة بين المسلم وربه»، فجرّدوا منه النظم الأخرى، فرديةً وجماعيةً، اقتصاديةً كانت أو سياسيةً أو غيرهما، ليبعدوه بهذا عن صعيد المبادئ وليقصوه عن مجال الأنظمة، ليكون لهم ما يريدون من استعمار واستغلال.

وما أشدّ التأكيد وأكثره من المستعمرين ومن دعاة المبادئ الوافدة على مسألة: «فصل الدين عن الدولة»، ليتمّ لهم توسيع رقاع استعمارهم وترويج ما يدعون إليه من المبادئ التي هي بدورها استعمار فكري ثانٍ، أفظع جورًا وأبلغ ظلمًا من الاستعمار لأطراف الحياة الأخر.

ب) الدعاة أنفسهم

وتتلخّص فيما يأتي:

أ. أن الكثرة منهم يدعون إلى الإسلام وهم بعد لما يفهموا الإسلام فهمًا واعيًا شاملاً لجميع جوانبه وأطرافه.

ب. إن الكثرة منهم أيضًا ممن لم يفهم الإسلام فهمًا واعيًا أنزلوه إلى حضيض الواقع السيئ، بزعم أنه متطوّر، وأن التطوّر هو مسايرة الأوضاع كيفما تكون.

ج. إن الكثرة منهم أيضًا ممن فهموا الإسلام ووعوه اتخذوا طريقة النقد والهدم للمبادئ والنظم الأخرى أسلوبًا لدعوتهم، وكان هذا ـ في الواقع ـ هو سبب فشلهم.

ومن المعلوم أن الأسلوب الناجح هو البناء قبل الهدم.

ابنوا الإسلام ينهدم غيره..

وأريد ببناء الإسلام ـ هنا ـ إبراز معالمه الواقعية التي طمستها عصور الانحطاط وتضليلات المضللين.

ذلك أن مهمّة الداعية إلى الإسلام تتلخّص فيما يلي:

١. أن يفهم الإسلام عقيدةً ونظامًا فهمًا واعيًا شاملاً.

٢. أن يعي الجوانب المهمّة من المبادئ والنظم الأخرى التي تفترق بها عن الإسلام. ويقارن بينهما وبين الجانب الإسلامي مقارنة موضوعية تستند على ركائز وأسس قويمة، ليستخلص من المقارنة امتياز الإسلام عليها في مدى صلاحيته لتوجيه وتنظيم الحياة مدعّمًا بالأدلة والشواهد.

٣. أن يؤكّد ـ بعد دراسته الإسلام وتفهّمه إياه تفهُّمَ وعيٍ ـ أنه مستمّد من الحياة ومستمر معها إلى الأبد ـ كما هو الواقع.

٤. أن يعطي نتائجه عن الإسلام للبشرية المعذّبة لينقذها من ويل المأساة المدمّرة إعطاءً منظمًا تنظيميًا فنيًّا وفق مخطط مرسوم ينتهج أساليب عملية مستمدّة من واقع الحياة، تتّصف بالاستقامة والاستواء لتوصل إلى الغاية في أقرب فرصة وأوجز مدّة.

٥. أن ينذر نفسه للإسلام، بأن ينكر ذاته من أجله ضمن إطار التعليم الإسلامي في مهمّات «التبليغ» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«الجهاد» وأمثالها.

وصفة نكران الذات في سبيل المبدأ هي ـ في الواقع ـ وضع طبيعي لحملة المبادئ؛ لأن نكران الذات من حبّ الذات ـ كما تقول الفلسفة القديمة ـ، أو لأنه نتيجة الولاء للمبدأ ـ كما يقول العلم الحديث.

ذلك أن الشخص حين يتغذّى بالعقيدة وتتغلغل إلى أعماقه، تمتزج ونفسه امتزاجًا يصيّر العقيدة جزءًا من ذاته، وتتحد معها اتحادًا ـ أو وحدة ـ يجعله يراها هي ذاته حقيقةً .. فهو حين ينكر ذاته في سبيل الدعوة إلى مبدئه، أو حينما يضحّي بنفسه من أجل عقيدته، يكون قد أنكر وضحّى من أجل ذاته وبنفسه.

أسلوب الدعوة إلى الإسلام(*)

من الأسئلة التي تثار كثيرًا:

ما هو أسلوب الدعوة إلى الإسلام؟، وهل هو خاصّ لا يُحاد عنه؟

وهو من الموضوعات التي عالجتها العديد من آي القرآن الكريم، ويمكن استعراضه بشيء من الإيجاز، وكالتالي:

في القرآن كثير من الآي الكريمة تحثّ على الدعوة إلى الإسلام، وتحرض على الجهاد في سبيل الدعوة إليه، وتؤكّد على النضال من أجل الحق.. وذلك لتبقى للإنسان قيمته العليا، وليُحتفظ له بكرامته السامية.

تحثّ على الدعوة إلى الإسلام.. وتؤكّد على الكفاح في سبيله.. كل أولئك لأن الإسلام ـ في الواقع ـ هو المبدأ الأفضل في سموّ العقيدة، وفي حكمة النظام وروعته؛ لأنه وضع ملائمًا في عقيدته للفطرة، وشرع

(*) مجلة الأضواء، السنة ١، العدد ٥، ١٥ صفر ١٣٨٠هـ.

موائمًا في نظامه للطبيعة، فاحتفظ للإنسان بقيمته المثلى، وقدر له كرامته السامية، فوهبه العزّة وأعطاه الرفعة وأيده بالمنعة، ووعده بالنصر ما دام يرعى إنسانيته في إطارها اللائق، ويلاحظ كرامته في سموها الرفيع، ويعنى بعظمة الدين لتسمو بذلك حياته في الدنيا والآخرة.

في سموّ العقيدة التي علم مُبدِئها ـ عزّ وجلّ ـ دخائل القلوب وخفايا النفوس، وأعماق الضمائر ودقائق الفطرة، فجاءت وفقًا لها، وبما يرفع منها إلى الكمال المنشود.

وفي حكمة النظام الذي علم مشرّعه ـ تعالى وتقدّس ـ غرائز الفرد، وعلائق الأسرة، وروابط المجتمع وصلات الكائن، فكان خير موازن بينها وأفضل معادل.

وقبل هذا في نظرة التشريع الوجهة التي رأت الإنسان جزءًا من الأسرة، فالمجتمع فالكون.. والتي نظرت إلى الكون بجميع عناصره، وبكلّ أجزائه وشؤونه، ذا صلة وثيقة بالخالق المدير العظيم، فوضع الدين على ضوء هذه النظرة الصائبة، وعلى أساس هذه الوحدة المتماسكة القويّة.

فالدعوة إلى الإسلام هي ـ في واقعها ـ الدعوة إلى الاحتفاظ بالإنسانية العالمية، وإلى الانضواء تحت مبدأ حرّ يعرف قيمة الإنسان وكرامته، ليفوز بالحرية والسعادة حين تُتَّبع تعاليمه ويسير الإنسان على هديه.

أمامك المبادئ ودونك الأنظمة، فجرّد نفسك من نصابها الحضاري، ومن رواسب العقيدة ونوزاع العاطفة، وقارن بينها مقارنة موضوعية، واعدل في ذلك، ثم احكم بما توصّلت إليه من النتيجة. وليكن مقياسك في المقارنة، وأساسك في الدراسة الاعتراف بالإنسانية والمحافظة عليها، ستكون الحصيلة ـ فيما أتيقن ـ أن خير مبدأ هو الإسلام، والإسلام فقط.

ولتكن هذه هي نقطة الانطلاق في الدعوة إلى الإسلام من جديد، والمنهج الذي يسار عليه في البحث والدراسة المقارنة.

الدعوة في القرآن غاية دون تحديد الوسيلة

والآي الكريمة هي أمثال قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[1]، ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾[4].

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

تأمر هذه الآي العزيزة بالدعوة إلى الله.. إلى الإسلام، وبالجهاد في سبيل الله.. في سبيل الإسلام حقّ جهاده، وترشد إلى ذلك بصيغة عامّة. وبلهجة فنية، لم تعيّن أسلوبًا واحدًا، ولم تحدّد طريقة خاصّة، ولم تفرض مسلكًا معينًا في الوصول إلى الغاية.

والذي يستفاد من هذه العبائر المشرقة ـ ومن أمثالها ـ هو وجوب الدعوة إلى الإسلام، والإلزام بالعمل من أجل ذلك دائمًا، ويبذل أقصى درجات الجهد، وأبلغ حدود الطاقة ـ فكريةً وعملية ـ في اتخاذ أكثر الطرق نجاحًا، وأوصل الأساليب إلى تحقيق الهدف، شريطة ألاّ تتنافى مع سائر الأحكام الإسلامية الثابتة ـ كما ألمحتُ إليه سابقًا أثناء الحديث حول (الدعاة المسلمين).

ووضع هذه القاعدة الشرعية العامّة بهذا الشكل العام، وبهذه اللفتة الرائعة المطلقة والمجرّدة عن أي تفصيل وعن تعيين أي أسلوب أو أية طريقة، فلأجل أن تكون قاعدةً عامّة، تنطبق على كلّ زمان ومكان، فتواكب الأجيال وتساير العصور؛ لأنّ تحديد الأسلوب وتعيين الوسيلة مما تفرضها ـ في الواقع ـ طبيعة ومقتضيات الظروف الزمنية للدعوة، أي دعوة.

الدعوة في السنّة نموذج يُقتدى

وربما يقال: إن سيرة الرسول ﷺ في الدعوة قد أملت ذلك وفرضته، فعلينا أن نلتزم وجوبًا أسلوبها الخاصّ.

ربما يقال هذا، غير أن سيرة الرسول ﷺ في الدعوة على ضوء الحكم المستفاد من تلكم الآيات المباركة ليست سوى مثل أعلى لامتثال الحكم الشرعي في أسلوب الدعوة، وليست حكمًا إلزاميًّا لا يُحاد عنه؛ لأنّ العمل وحده لا يدلّ على الوجوب، وإنما يعيّنه متى اقترن بنصّ لفظي يدلّ عليه.

إلاّ أن السيرة النبوية المقدّسة لا بدَّ أن تؤخذ طريقةً لامتثال ذلك الحكم العامّ.

وعلى ضوء هذا الاستنتاج: فالقاعدة ـ إذن ـ تبقى هي القاعدة الأولية.

ابتكار الأساليب الحديثة في الدعوة

وربما يقال لأسباب قد لا تكون مبرّرة أمام الواقع المعيش: علينا أن نحافظ على أسلوبنا القديم الذي درج عليه الآباء والأسلاف، ولا بدّ منه.

ولكن من أين تحتّمت هذه اللابدّية؟ .. ومن الذي قرّرها؟ هل هناك شيء وراء طبيعة الظروف؟

إن طبيعة الظروف الراهنة تحتّم علينا ـ نحن المسلمين وخاصّة الدعاة والمبلّغين ـ اقتحام كلّ مجال، واتخاذ أي أسلوب يرتضيهما الإسلام واستثمار كل مناسبة معطاء، وعدم الجمود على الأساليب التقليدية التي أثبتت التجارب فشلها.

حول أساليبنا في الدعوة(*)

أشرتُ في حديث سابق عن (أسلوب الدعوة إلى الإسلام) إلى بعض الأساليب التقليدية القديمة التي أثبتت التجربة فشلها، عارضًا نقدها النقد البنّاء بغية الوصول إلى الهدف الذي نرمي إليه من أداء رسالتنا الإنسانية (الإسلام) إلى الأمة الفقيرة لتلمسها واقعها المؤلم، فترتفع وتطلع إلى الأوج الإنساني الذي هيأه وأراده لها الإسلام، مُبدؤها العظيم.

المنهج في عرض عقيدة التوحيد

وإخال أن أهم أسلوب يلزمني الوقوف عنده هو أسلوب عرض المفاهيم والأفكار والمعارف الإسلامية لتغذية أذهان الأمة بها، فغلغلتها إلى أعماق قلوبهم لتمتزج وكيانهم أو لتتحد وشخصياتهم، لكي تتحوّل بعد ذلك إلى مزيج من عنصري العقل والعاطفة متشابك ومتماسك أي التشابك والتماسك، فتخلق منهم شخصيات إسلامية تحسّ عظمة

(*) مجلة الأضواء، السنة ١، العددان ١١ و١٢ جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ.

الإسلام، وتستشعر احتفاظ الإسلام لها بكرامتها وعزتها الإنسانيتين. وتنظر رأي العين مسؤوليتها تجاه البشرية منسجمة واضحة، فتندفع بوازع من عميق أنفسها لأداء مهمتها أفضل وغاية الأداء.

وإخال أيضًا أن أهمّ تلكم المعارف الإسلامية هي «عقيدة التوحيد»، العقيدة التي هي القاعدة الفكرية والأساس لبقية العقائد والتشريعات والمركز الذي تلتقي عنده خطوط المعرفة الإسلامية بأجمعها، والإطار العام الذي يعيش المسلم داخل حدوده دائمًا وأبدًا.

إن الواقع الذي أراه عند الأكثر من المبشرين والدعاة إلى الإسلام في أسلوب إعطائهم وتبليغهم العقيدة الإسلامية هو عدوّ سرد الأقوال والأدلة ببيانٍ يفقدها قيمتها كعقيدة إنسانية لها فاعليتها وتأثيرها على نفسية الإنسان وفي شخصيته.

وللإيضاح أكثر: إن الأكثر منهم يعرضها بهذا الشكل وعلى هذا الأسلوب غالبًا:

عقيدتنا في التوحيد هي: إنّ لهذا الكون إلهًا خالقًا واحدًا متصفًا بجميع صفات الكمال، والبرهان على ذلك دليل السببية والوجدان ... وإلخ.

متأثرين ـ في هذا اللون من التعريف والعرض ـ بنظريات وأفكار الفلسفات الإلهية التي دخلت التفكير الإسلامي وامتزجت به منذ بدء تفاعل الحضارة الإسلامية والحضارات الأخر، الأمر الذي أفقد التفكير

الإسلامي ـ الذي نزل به القرآن الكريم ـ منهجه العقائدي الذي رسمه القرآن، وأسلوبه في الأداء الذي دلّ عليه.

هذا هو الواقع الملموس، وكأننا نريد من المسلم أن يطبع هذه المعارف في ذهنه ويحملها على ألواح تلافيف دماغه دونما استفادة منها في حياته، فكريةً أو عمليةً.

دور العقيدة في بلورة الشخصية

ولست أريد من توجيه هذا النقد ألاّ نُبرهنَ أو ندلّل على وجود الله تعالى ووحدانيته، فهذا مما لا بدّ منه، وإنما أريد أن نجعل من إثبات الألوهية والوحدانية خطوة أولى لخطوة ثانية نؤكّد فيها ونركز كل التركيز على فاعلية وتأثير عقيدة التوحيد في بلورة نفسية المسلم بلورةً تتمشى وتتفق وفطرته: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]، وصياغة شخصيته صياغة تلتقي وتلتئم وطبيعته الإنسانية: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[2]، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾[3].

وهذه هي المشكلة التي نعانيها في تأدية واجبنا كمسلمين مسؤولين.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الجن، الآيتان: ١٣ و١٤.

وانطلاقًا من هذه النقطة، فلنتأمّل قليلاً من أجل تعرّف عواملها، وقليلاً من أجل التوصّل إلى حلها وعلاجها.

ففيما يبدو أن من أسباب المشكلة هو الابتعاد كثيرًا عن الالتزام والعمل وفق مناهج القرآن العزيز وطبق أساليبه في دراسته العقيدة وإعطائها الأمة الإعطاء الذي يتمشّى مع طابعه ككتاب دعوة، ومع طبيعة الأمة كبشريين يفتقرون إلى ما يزكي ويهذب نفوسهم من أدران الفكر المسمومة المفسدة، وإلى ما يبني كيانهم وشخصياتهم على أساسٍ من واقعهم كإنسانيين.

ولماذا كل هذا من القرآن؟!

كل هذا، لأنه الإسلام، وهو دعوة إلى الخير وعملية تغيير الفرد والمجتمع إلى فرد إنساني ومجتمع إنساني.

فلماذا لا نسير وفق منهجه ونحن مسلمون ندعو إلى الإسلام، الذي هو دعوة الخير، وعملية الدفع إلى الإنسانية.

إن المشكلة في واقعها هي نتيجة الابتعاد عن مناهج القرآن وأساليبه، والاقتراب إلى مناهج المدارس الفلسفية الإلهية التي تعرض عقيدة التوحيد وتعيشها كمسألة فكرية علمية فحسب، والتي تسرّبت إلينا عن طريق الاتصال الاجتماعي وتفاعل حضارتنا وتلكم الحضارات الأخر في أزمان كان هواة العلم وروّاده ـ في واقع الأغلبية منهم ـ علماء غير دعاة منصهرين بواقع الإسلام كدعوة، وكتب وأسفار الفلسفة الإلهية وعلم الكلام تبرز الصورة بينة الملامح وواضحة الخطوط.

وكان من نتائج هذين العاملين (الابتعاد والاقتراب) وعوامل أخر أقسى وأمرّ، جاءت بعد هذين العاملين أو معهما: أن يكون المسلم حاملاً لعقيدته مجرّدة ومعرّاة عن فاعليتها وتأثيرها، مما جعل منه فردًا يعيش في المجتمع ولا يشعر بأنه اجتماعي عليه واجب الإنسان الاجتماعي.

أما حلّ المشكلة:

ففي عقيدتي هو أن نلتزم العمل وفق مناهج القرآن الكريم وأساليبه التي تمزج العقل بالعاطفة حين تغذي العقل وتنمي العاطفة، والتي تدلّ وترشد الإنسان إلى حصائل وثمار العقيدة.

فإن العقيدة ـ أي عقيدة ـ إذا لامست العاطفة وأثارتها الإثارة الكافية، أثّرت التأثير الكبير على سلوك الإنسان، ما يجعله لا يصدر في سلوكه ولا يندفع إلا وفق تلكم العقيدة وضمن إطارها؛ لأنه يتّخذ منها ـ من حيث يقصد أو لا يقصد ـ مقياسًا يقوم على ضوء نتائجه بالاندفاع إلى العمل أو الارتفاع عنه، فمتى التقى العمل هو ونتيجته بالعقيدة، قام به. ومتى تنافى هو أو نتيجته معها، رفضه ولم يُقْدِم عليه.

المنهج القرآني في عرض العقيدة

ومن الأمثلة: تصوير القرآن الكريم لواقع الإنسان الذي يعتنق عقيدة غير عقيدة التوحيد، إلحادًا كانت أو شركًا. يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

(١) سورة الحج، الآية: ٣١.

ما هي نتيجة من يخرّ من مرتفع عالٍ إلى هوّة بعيدة بعيدة؟، وما نتيجة من يهوي من السماء فتتلقاه الطيور الجوارح بمخالبها تنهيشًا وتمزيقًا؟!

إنها تحطيم الشخصية والقضاء على الحياة.

هكذا يرينا القرآن واقع من يحمل غير عقيدة التوحيد، يكون كالذي يهوي من السماء ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾، محطّم الشخصية فاقد الحياة؛ لأنه يصدر في سلوكه وأعماله عن تلكم العقيدة المسمومة المردية.

وهكذا يرينا فاعلية العقيدة ويلمسنا أثرها صورة كالواقعية التي نشاهدها رأي العين.

«وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقرّ الآمن الذي يؤوب إليه، فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح. وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقرّ على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش به»[1].

ويقول: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾[2].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، سورة الحج.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

وهي صورة أخرى مقارنة بين من يقيم بناء شخصيته على أساس قوي صامد صمود الأبد، وهو العقيدة الحقة، وبين من يقيم بناء شخصيته على أساس من أرض رخوة مفككة الأجزاء، صائرة إلى التهدم والانهيار، وهي العقيدة الباطلة. فأيهما الذي أنصف إنسانيته، وأيهما الذي لم يظلمها؟، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وهي صورة أخرى أيضًا توضح وترسم فاعلية العقيدة، يخاطب بها القرآن الكريم عقل الإنسان وعاطفته معًا، ليمزج بينهما وبين العقيدة فيدمجها وإياهما عناصر تقوم بمهمّة تكوين الشخصية الإنسانية.

هذا هو المنهج القرآني القويم، إنه لم يكتفِ بأن يبرهن على عقيدة التوحيد دون أن يعرض ويوضح فاعليتها وتأثيرها ليُفاد منها في الحياة العملية.

إشارات معاصرة إلى أهمية دراسة العقيدة قرآنيًّا

وهذه المسألة ظهرت بعض بوادر الالتفات إليها وأخذت دراستها تظهر في بعض المؤلّفات الإسلامية بما يُرجع لها تقييمها التربوي، فقد رأيت بعض الكتاب من عرض لها مشيرًا، ومنهم الأستاذ مالك بن نبي، وكان تعريفه للمسألة ونقده إياها مما يلقي الضوء المنير، يقول: «وعلم الكلام لا يتّصل في الواقع بمشكلة النفس إلا في ميدان العقيدة أو المبدأ. والمسلم، حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخلَّ مطلقًا عن عقيدته، فلقد ظلّ مؤمنًا، وبعبارة أدقّ: ظلّ مؤمنًا متدينًا، ولكن عقيدته

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

تجرّدت من فاعليتها؛ لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي، فأصبحت جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلّل من صلاته بوسطه الاجتماعي.

وعليه، فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرًا للطاقة»[1].

وختامًا، أودّ أن يكون حديثي هذا مثار بحث ودراسة للمسألة بصورة أوسع وأكثر تركيزًا وأعمق مما هي الآن، لنحسّ نتائجها في الفرد المسلم والمجتمع المسلم. إن شاء الله تعالى.

(١) وجهة العالم الإسلامي، ص ٥٥.

الفصل الثاني

أهل البيت وتمثُّل القيم الإسلامية

- المسلم في حياة الإمام علي
- أهداف ووسائل ثورة الطف
- الإمام الصادق عليه السلام الداعية

المسلم في حياة الإمام علي عليه السلام(*)

المسلم في معنى انتمائه للإسلام

من طبيعة الإسلام، ومن واقع مفاهيمه النقية الأصيلة، ومن طابع نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، نستطيع أن نبلور مفهوم (الإنسان المسلم) في أسلم تعاريفه، وفي ألصق خصائصه ومميزاته، وفي أركز عناصره، وفي أعمق محتوياته، بأنه: ذلك الإنسان الذي صيغ وكوّنت شخصيته على ضوء تعاليم الإسلام وهديه.. فكرة إسلامية، وعاطفة إسلامية، وسلوك إسلامي. متى توفرت هذه العناصر: الفكرة الإسلامية، حيث تملأ النفسية في أحاسيسها وانفعالاتها، والسلوك الإسلامي، حيث يصدر منهجًا وفق تعاليم الإسلام وتوجيهاته. متى توفرت هذه العناصر أصيلةً وخالصة، كونت الشخصية الإسلامية وأعطتها خصائصها، وصاغت الإنسان المسلم في إطاره ومحتوياته.

ونستطيع أن نفهم في ضوء هذا التعريف أن الإنسان المسلم: هو

(*) مجلة الأضواء، العدد ٧، السنة ٢، العام ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الذي يحكّم الإسلام عقيدةً ونظامًا في جميع حياته فرديةً واجتماعيةً، وفي كل مجالاتها ومختلف مناحيها؛ لأن الإسلام ـ حسب مفاهيمنا، لا حسب المفاهيم الغربية السائدة والتي لا نزال نعاني من رواسبها ـ عقيدة ونظام، دين وحياة، مبدأ ودولة، فيه النظام الاقتصادي، وفيه النظام السياسي، وفي النظام الاجتماعي بمعنييه الخاص والعام. ولأن الإسلام ـ في هذا الواقع الإنساني الرفيع ـ يدفع المسلم دفعًا إلى تنظيم الحياة على هديه وفي ضوء تعاليمه، وإلى تطبيقه في كل مجالات الحياة في الفرد والأسرة، وفي المجتمع والدولة.

والمسلم حركة، تحاول أن تجعل من البشرية كلها أمة واحدة تعمل بالإسلام، ومجتمعًا عالميًّا واحدًا، تصمم وتشاد بنيته على مبادئ الإسلام وأحكامه؛ لأن الإسلام هو الإنسانية، هو خيرها وسعادتها، والمسلم يحب لغيره ما يحبّ لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وهو خليفة الله في أرضه، وحامل رسالته إلى الناس كافّة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

والمسلم وعي وتضحية.. يعي كيانه كفرد، ويعي كيانه كأمّة ويعتقد أن مصلحة الإسلام العليا فوق كل شيء، فوق النفس متى تطلبتها للتضحية من أجل إسناد وتقويم كيان الإسلام كمبدأ، وكيان المسلمين كأمة.

من هذا التعريف لمفهوم المسلم، ننطلق لنتعرفه في تاريخ حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

الإمام علي عليه السلام النموذج للإنسان المسلم

كانت حياة الإمام علي عليه السلام كيانًا إسلاميًّا خالصًا، تمثّل النموذج الكامل المتكامل للإنسان المسلم، وهذا ما نلمسه في كل ظواهر حياته عليه السلام، وربما كان أروعها: حياته حينما حاكمًا عامًّا، يرأس الدولة الإسلامية، ويتزعّم الأمة المسلمة.

كان عليه السلام، لشدّة إخلاصه إلى الإسلام والمسلمين، يمارس السلطات الثلاث بنفسه مباشرة وتوجيهًا، ومراقبة دقيقة، ومحاسبة تامّة للمسؤولين عنها من قِبله في الدولة. ها هو يخاطب أبناء عصره فيقول: «قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ ووَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلالِ والْحَرَام وأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وفِعْلِي وأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي»، «والله مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئًا إلا وهَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوهُ»، «ولَيْسَ رَجُلٌ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وأُلْفَتِهَا مِنِّي أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ وكَرَمَ الْمَآبِ»، «وإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تَأْخُذُهُمْ فِي الله لَوْمَةُ لائِم، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وكَلامُهُمْ كَلامُ الأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ ومَنَارُ النَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ الله وسُنَنَ رَسُولِهِ، لا يَسْتَكْبِرُونَ ولا يَعْلُونَ ولا يَغُلُّونَ ولا يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ وأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ».

ونلمس عدله الاجتماعي وتطبيقه نظام الحكم على نفسه وعلى الرعية تمام التطبيق، في بعض ما نقله التاريخ من تراثنا الحضاري، أمثال: إطفائه شمعة بيت المال حينما جاءه بعض المسلمين في بعض شأنهم، وإحمائه الحديدة لأخيه عقيل حينما استماحه من برّ المسلمين صاعًا.

ونلمسها في مشاركته الوجدانية التي لم نرها عند غير علي عليه السلام بمساواته في المعيشة والحياة الاقتصادية أقل فقير من أبناء الأمة، والتي يفلسفها ويصورها بأقواله المأثورة عنه، أمثال قوله: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ»، وقوله: «ولَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، ولُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، ونَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. ولَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ويَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ، ولَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، ولا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ولا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ».

ومنها نفهم جليًّا أن النظام الإسلامي لم يشرّع لمصلحة الطبقة الحاكمة، كما نراه ونلمس واقعه فيما سواه من التشريعات والأنظمة، ذلك «أن كل تشريع أرضي هو ـ في واقعه ـ تعبير عن الطبقة التي تملك وتحكم، وأن يمثّل مصالحها هي على حساب بقية الطبقات، فالإقطاع مرة يحكم، فيشرّع لحساب طبقة الإقطاعيين ولحماية مصالحهم على حساب بقية الشعب، ورأس المال مرة يحكم، فيشرّع لحساب طبقة الرأسماليين ولحماية مصالحهم على حساب العمّال، ودكتاتورية البوليتاريا مرة تحكم، فتشرّع لحساب طبقة العمال (نظريًّا على الأقل) على حساب بقية الآدميين.. ولم يحدث غير ذلك في التاريخ»[1].

(١) محمد قطب، هل نحن مسلمون؟

نفهم جليًّا أن النظام الإسلامي لم يشرّع لغير مصلحة الإنسانية عامّة، وإعطائها كرامتها والاحتفاظ بها.

ونفهم جليًّا أن يماشي واقع الحياة؛ لأن الحاكم متى لم يعش حياة الفقير، لا يتحسس آلامه، ولا يشعر بمدى حاجته، فهو إلى عدم إنقاذه من وهدة البؤس وهوّة الفاقة أقرب منه إلى العناية به.

ونلمسها في عدم استغلاله المنصب لصالحه أو لصالح ذويه ومن إليه، يقول عليه السلام: « فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا، ولا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا، ولا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا»، وها هو يكتب إلى بعض عمّاله: «كَيْفَ تُسِيغُ شَرَابًا وطَعَامًا وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا، وتَشْرَبُ حَرَامًا، وتَبْتَاعُ الإمَاءَ وتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى والمَسَاكِينِ والمُؤْمِنِينَ والمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الأَمْوَالَ، وأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلادَ؟، فَاتَّقِ اللهَ وارْدُدْ إِلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ، لأعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ، ولَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلا دَخَلَ النَّارَ وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ فَعَلا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ ولا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا».

وشيء نلمسه من فلسفة الإمام وثقافته هو: أن كل فكرة يقولها يستمدها من واقع الحياة العملية، ويرسلها في مصلحة الحياة العملية، فلا تعثر على فكرة عنده بعيدة عن الواقع، أو تمتّ إلى الخيال واللاواقع بأية صلة، مما يعطينا أن حياته في كل جوانبها، حتى الفكرية منها، هي بكاملها عمل يبذل في سبيل الحياة العملية للإنسان من أجل نفسه وخيره.

ونلمسها في تطهيره مجتمعه آنذاك من العناصر اللاإنسانية أو المناوئة للإسلام، أو المتمرّدة على تحكيم الإسلام نظامًا في الحياة، وفي تطهيره ذهنيات المسلمين من أوضار الفكر المسمومة، وفي تنقيته المفاهيم والأفكار الإسلامية مما علق فيها فغيّر من معالمها الأصيلة، وفي محاولاته من أجل إعادة المجتمع الإسلامي إلى نصابه، والذي يحدده بقوله: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: الإِيمَانُ بِهِ وبِرَسُولِهِ والْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلَامِ، وكَلِمَةُ الإِخْلاصِ، فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ»؛ ذلك أن الفكرة اللاإسلامية، والتي تناقض مبادئ الإسلام لا مجال لها في بلاد المسلمين وفي مجتمعهم.

فالمبادئ غير الإسلامية لا تعيش في مجتمع إسلامي ترسى قواعده على تعاليم الإسلام، وتوثق علائقه على هديه وإرشاده.

وقد رأينا الإسلام يذهب إلى أبعد من هذا، يقول تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(1).

الفئة الباغية من المسلمين لا حياة لها في مجتمع إسلامي حتى تفيء إلى أمر الله تعالى. ورأينا الإمام عليه السلام يطبّق هذه المادة في مجالها.

هذا هو المسلم في واقعه الأصيل، نلمسه في تاريخ حياة الإمام عليه السلام فكرةً إسلامية تملأ الذهنية في إطارها وتفكيرها، وعاطفةً إسلامية

(1) سورة الحجرات، الآية: ٩.

تملأ النفسية في أحاسيسها وانفعالاتها، وسلوك يصدر منهجًا وفق تعاليم الإسلام وتوجيهاته.

فهل وعينا كياننا كمسلمين وكأمة؟ وهل علمنا أن الأمة التي لا تفهم ذاتها، ولا تعي كيانها لا تقوى أن تثبت وجودها، ولا تستطيع أن تحتفظ بكرامتها ولا تقدّر أن تحقق غاياتها وأهدافها؟

ندعوه تعالى أن يجعل من هذه اليقظات نقطة الانطلاق وفاتحة الخير إلى حياة إسلامية عليا.

أهداف ووسائل ثورة الطفّ(*)

لكل حركة اجتماعية عوامل سببت حدوثها، وأغراض يستهدفها القائمون منها، ووسائل خاصّة يرونها أكفل بتحقيق تلكم الغايات والأغراض.

حركات التغيير الاجتماعي

وكل حركة ثوروية ـ وهي نوع من الحركات السياسية التي هي بدورها وطبيعتها نوع من الحركات الاجتماعية ـ تقسم في رأي فريق من علماء الاجتماع إلى نوعين، على اعتبار الأهداف التي ترمي إليها:

(١) ثورية، وهي: التي تنشد نسف النظام الاجتماعي القائم من قواعده وأسسه، والقضاء عليه قضاءً تامًّا، وإقامة نظام اجتماعي آخر بدله.

(٢) **إصلاحية**، وهي: التي تهدف إلى تغيير ما لا يلتئم مع روح

(*) مجلة الأضواء، العدد ٣، السنة ١، ١٥ محرم ١٣٨٠هـ: ١٠ تموز ١٩٦٠م.

وبنود النظام الصحيح في نظرها، وما لا يتفق وطبيعة المجتمع الذي ثارت في سبيله، وجعله منسجمًا مع ما تقصد إليه من قيم ونظم وأخلاق وما شاكل.

والذي يتحكم في فرض أو إملاء هذا النوع من الحركة أو ذاك هو طبيعة الظروف الاجتماعية والسياسية لتلك الحركة.

على ضوء هذا التقسيم المذكور، أعرض ـ بشيء من الإيجاز ـ نوعية نهضة الإمام الحسين عليه السلام مستخلصًا ذلك من خلال واقعها التاريخي، ومن واقع شخصية الإمام الحسين عليه السلام مصلحًا ومسؤولاً عن رعاية المسلمين ومدّ الدعوة الإسلامية؛ لأن دعوة الإمام الحسين عليه السلام ـ في واقعها ـ امتداد لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

على ضوء هذا، أشير موجزًا إلى أن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هل هي ثورية أم إصلاحية؟ وإلى الأغراض التي استهدفتها، ثم الوسيلة التي اتخذتها في تحقيق أهدافها، والتي هي ـ في نظرها ـ الكفيلة بذلك.

طبيعة النهضة الحسينية

ألمحتُ إلى أن اعتبار الحركة ثورية أو اعتبارها إصلاحية، رهين بطبيعة ظروفها الزمنية، ولذلك فهي ترجع في ذلك إلى واقع النظام القائم وواقع الحاكمين به، وإلى ما ينشده القائمون بالحركة.

إن واقع النظام القائم زمن الإمام الحسين عليه السلام وواقع الحكّام آنذاك بعيدان كل البعد عن واقع الإسلام، دين الأمة ونظامها المحبوب.

ويكفينا للتدليل على ذلك: استبدادية معاوية ووصوليته، واستبدادية يزيد السافرة، ونفعية بطانته الحاكمة وانتهازية جهاز الدولة بشكل عام من أجل الوصول إلى مآربهم الخاصّة على حساب المسلمين المظلومين بحرمانهم من حقوقهم وبامتهان كراماتهم وقيمهم الشخصية .. ومجون يزيد وخلاعته والأخلاق والقيم الاجتماعية غير الإنسانية لأغلبية أبناء ذلك المجتمع الموبوء وأمثال هذه من مفارقات ومناقضات لروح الإسلام وتشريعاته العادلة، التي يحدثنا التاريخ عنها بملء الصراحة.

إن نقل التاريخ لأمثال هذه المجافيات لواقع الشريعة الإسلامية وروحها فلتة من فلتات الزمن؛ لأنه كُتِبَ بأقلام المثقفين الأذناب آنذاك، السائرين بركاب الحكام الجائرين إلا ما شذّ، ولأنه هو الذي وقف موقف الخيانة والجناية في حقّ الحسين عليه السلام وآله، فعدّ نهضة الإمام عليه السلام من نتائج الصراع القبلي بين هاشم وأمية الذي ظهر بأعنف أشكاله وصوره في مأساة الطف، كما يدّعي ويصوّر، ليمسخ حقيقته صراعًا بين مبدئي: الإسلام المتمثّل في شخصيات الحسين عليه السلام وآله، والجاهلية المتجسّدة في شخصيات يزيد وآله.

ويكفينا أيضًا في البرهنة على ذلك من مأثور التاريخ لأقوال يزيد التي يدان بها قوله:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل

والتي تكشف عن واقعه ودخيلة نفسه التي تعرب بدورها عن عقيدته، وهو الحاكم العامّ.

من هذه ـ ونظائرها ـ نتبيّن أن نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت حركة ثورية ـ استهدفت تحطيم ونسف النظام الأموي القائم لجوره ولنحله على الإسلام نحلاً، وإعادة النظام الإسلامي إلى الحكم ولسياسة المجتمع بالعدل، ورعاية الأمة بالحق.

وهذه ـ ونظائرها ـ من أهم عوامل ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي تمتدّ بجذورها التاريخية إلى أيام جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

من عوامل النهضة الحسينية

يرشد إلى تحديد تلكم الأغراض السامية التي استهدفتها ثورة الحسين عليه السلام واقعه عليه السلام الذي ينطبق وواقع الإسلام تمام الانطباق، وكلماته وأقواله الكريمة التي هي بمثابة تحديد لنتائج مخططات ثورته وغاياتها المقدّسة، أمثال:

ما جاء في وصيته عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية: «وأني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله وسلم أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين».

وما جاء في كتابه عليه السلام إلى رؤساء الأخماس بالبصرة: «أما بعد، فإن الله اصطفى محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم على خلقه، وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته، ثم

قبضه إليه، وقد نصح لعباده، وبلَّغ ما أرسل به ﷺ، وكنا أهله، وأولياءه وأوصياءه، وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السُّنة قد أميتت، والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد».

والوسيلة هي الأخرى تمليها وتقرّرها طبيعة الحركة وملابساتها وظروفها الزمنية.

وتلكم الظروف والملابسات ـ بواقعها التاريخي آنذاك ـ كانت تفرض أن تكون وسيلة الثورة للإطاحة بنظام أمية وحكمها الجائر المنافي للإسلام، هي الشهادة؛ لأنها هي الاحتجاج الأخير والحاسم، والعامل القوي حينذاك، ولأنها هي الفتح ـ كما يصفها الإمام عليه السلام بقوله: «من لحق بي فقد استشهد، ومن لم يلحق، لم يبلغ الفتح»، ولأنها هي الانتصار بنفوسها المزهقة ظلمًا وبدمها المراق عدوانًا .. «إن موت الشهيد فجرُ انتصاره».

الثورة علاجًا لواقع الأمة

والإمام الحسين عليه السلام يحتم اتخاذ الوسيلة المذكورة، حيث ينظر الواقع الاجتماعي الحاضر آنذاك وسوء المصير الذي آل إليه، وتدلنا على ذلك أيضًا أقواله المأثورة الشريفة، أمثال:

ما في خطبته بمكة التي استهلها بذكر الموت: «ألا ومن كان فينا

باذلاً مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحًا إن شاء الله تعالى».

وما في خطبته بكربلا: «أما بعد، فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا تغيرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برمًا».

هكذا تفعل العقيدة، وهكذا يصهر الإسلام شخصيات أبنائه، فيفدى بأغلى ثمن، ويحمى بأعزّ شيء.

وهذه هي الدروس والعبر التي تفاد من حيواتهم الخيرة الحرّة وتضحياتهم المقدّسة في سبيل المبدأ.

الإمام الصادق عليه السلام الداعية(*)

«السَّلامُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلى اللهِ والأَدِلاّءِ عَلَى مَرْضَاة اللهِ»

تتموّج بين أضواء هذه العبارة إشراقة من وضح النبوة وتتفجر بين قبساتها إشعاعة من نور الإمامة. وللحقّ دلائل بها يعرف، وللصواب أنوار يستدلّ بها عليه.

هذه العبارة المشرقة إحدى الأوصاف للأئمة من أهل البيت عليهم السلام التي وردت في الزيارة الجامعة، لتقييم واقعهم الإنساني الأمثل.

عرضتُها لتكون مثار الحديث، ومرتكز البحث؛ إذ تعدّ من التصويرات التي تعكس واقع الأئمة عليهم السلام حينما نقصد وحينما نفهم ما في كلمات هذه العبارة من محتويات، ولأنها جماع الكلمة التي تقيّم سمو شخصياتهم عليهم السلام. ذلك أن الدعوة إلى الله تعالى والدلالة على مرضاته

(*) مجلة الأضواء، العددان ٢٠ و٢١، السنة ١، ١٥ شوال ١٣٨٠هـ: ٣١ مارس ١٩٦١م.

هي المسؤولية الأولى والعظمى التي أنيطت بالنبي ﷺ، ومنه امتدّت إلى الأئمة من آله لما يتمتعون به من إنسانية كاملة، ولتوفر مقوماتها وعناصرها وشروطها فيهم عليهم السلام. وللتعرّف على نوعية ومفاهيم هذه المقوّمات والعناصر والشروط لهذه المسؤولية يرجع إلى كتب العقيدة وبخاصّة مدونات الإمامة، فملؤها إيضاح وبرهنة وتدليل بما لا يفسح أي مجال للريب في إمامتهم وإناطة هذه المهمّة الخطيرة بهم عليهم السلام.

وتتضمن المسؤولية في مدلولها ووظيفتها: رئاسة الدولة الإسلامية وإدارتها بالعدل، ورعاية شؤون الأمة وقيادتها إلى الحق؛ لأنها مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وهي تختلف في واقعها الموضوعي من حيث العناصر والمقوّمات والشروط وما إليها. ومن هنا كانت دراستها واستعراضها من هذا الجانب هي ـ في الواقع ـ دراسة موضوع واحد لا يختلف نظريًّا وموضوعيًّا في شخصية إمام عنه في شخصية إمام آخر.

يضاف إليه: أنها لا تختلف أيضًا في واقع الأئمة التاريخي الفردي. فحياتهم الفردية صورة واحدة.

الإمام والدعوة إلى العقيدة الصحيحة

عرض أساليب الدعوة في حياة كل إمام يرتبط ارتباطًا وثيقًا ـ في استخلاص نتائجه ـ بمعرفة أدوار حياة الدعوة الإسلامية منذ عصر الداعية الأول النبي محمد ﷺ حتّى عصر الإمام الذي يؤرّخ له، وذلك بغية الوقوف على مختلف العوامل الاجتماعية والسياسية التي ساعدت

على دفع ونشر، أو على إيقاف وعرقلة الدعوة في مجالاتها عامةً وخاصّة.

ويتوقّف ـ من ناحية منهجية ـ على معرفة العناصر والمقوّمات المبدئية التي يقوم على أساسها الكيان الكامل للفرد المسلم، والكيان الكامل للمجتمع المسلم، من أجل تعرّف مدى انتشار الدعوة نتيجة جهاد الإمام المؤرّخ له، ونتيجة قيامه بمسؤوليته بصفته داعية ومسؤولاً أول.

إن خطوط هذه العناصر والمقوِّمات تلتقي جميعها عند مركزها الأساس والأصيل، وهو: (العقيدة ذات الفاعلية الاجتماعية) التي تدفع إلى تحكيم وتطبيق النظام تطبيقًا واقعيًّا وإلى العمل الجماعي المستمرّ من أجل ذلك، وبأبعد وأفضل ما يتطلّب حتّى التفاني والتضحية.

ضعف فاعلية العقيدة في المجتمع المسلم

لعوامل كانت تعيشها نفوس المسلمين، وكانت من أهم ظواهرهم الاجتماعية قبل إسلامهم، حملوا رواسبها معهم إلى الإسلام ولّما يستكمل تطهيرهم منها، ولعوامل وُجدت في المجتمع الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ وبين صفوف المسلمين، لتلك ولهذه ولغيرهما من العوامل، بدأت العقيدة الإسلامية تضعف قليلاً قليلاً، حتى ثورة الإمام الحسين عليه السلام، حيث أملت عليه الظروف، وفرضت عليه الملابسات الاجتماعية والسياسية آنذاك أن ينتصر لهذا بالفداء، وأن يقوي منها بإراقة الدم الطاهر، وأن يضاعف من طاقاتها الحرارية بأشلاء الضحايا المقدّسة من آله وصحبه عليهم السلام.

فكانت هذه الثورة الجبارة اللغم الذي انفجر تحت صرح العقيدة الباطلة، واللغم الممهِّد لما تليه من ألغام، والمنار الذي اهتدى به الثائرون ضدّ الحكم الجائر لبني أمية حتى أطيح وعصف بكيانه رمادًا يرى الناس مصير الباطل ومآل الجور، ويوقفهم على مستقبل العقيدة الفاسدة ترمي بمعتنقها إلى هذه الهوّة.

وكانت حافز إثارة الوعي الإسلامي، وعامل الاندفاعات من أجل استعادة الحقوق المغتصبة، ولإعطاء العقيدة الإسلامية مجالها للنفوذ إلى أعماق قلوب المسلمين لتسترجع فاعليتها الأولى.

وكانت ـ وما وليها من الحركات الاجتماعية والانتفاضات السياسية ـ من أهم وأقوى العوامل التي ساعدت على تهيئة الذهنية لأبناء الأمة لتفهم الإسلام ووعي مفاهيمه وأهدافه.

الدور الدعوي للإمام الصادق عليه السلام

وهنا، كان دور الإمام الصادق عليه السلام في فترة الانتقال في نهاية دولة أمية وبداية الدولة العباسية، مما أعطى الفرصة وأعدّ المجال للإمام عليه السلام أن يقوم بمسؤوليته بذلك الشكل الموسّع.

وقد تلخص هذه العوامل المساعدة للإمام من الوجهة الاجتماعية والسياسية بما يلي:

١. فترة الانتقال، التي من طبيعتها تهيئة المجال للعقائديين في نشر وبثّ مبادئهم نتيجة انطباعها بصبغة الصراع السياسي بين الحكم المنهار والحكم القائم على أنقاضه وانشغالها به.

٢. إقامة الإمام الصادق عليه السلام في المدية المنورة، مصدر التشريع الإسلامي، ومركز الثقل الديني في البلاد، ومجتمع ذوي المكانات الاجتماعية المرموقة من القيادات الإسلامية، ما يعطيها خطورتها الكبرى في أعين الساسة والحكّام، وما يجعل لها خطرها المخيف عليهم وعلى سياستهم وبخاصّة في فترة الانتقال.

٣. مركز الإمام الديني الذي يحتلّ القمة، ومكانته الاجتماعية العليا والواسعة.

٤. ابتعاد الإمام عليه السلام عن المجال السياسي، واعتزاله خوض معترك السياسة القائم؛ لعلمه وخبرته من الأحداث السابقة بعدم وصول الحكم إليه، ولعلمه بموقف السياسة الراهنة آنذاك منه، ووجهة نظرها إليه على أنه الخطر الكبير المهدِّد لكيانها؛ لشخصيته الإسلامية الفذّة، ولمركزه الديني والاجتماعي الأعلى، ولأن المعارضة للسياسة كانت حينها تسير طبيعيًّا من غير أن تفتقر إلى الدفع وبشكله السافر.

وكل هذا ليتفرّغ إلى دفع العقيدة الإسلامية ذات الفاعلية الاجتماعية؛ لأنها القاعدة التي يقوم على أساسها بناء الفرد المسلم، وكيان المجتمع المسلم، والأصل الذي تتفرع منه كل المعرفة الإسلامية والمقياس الذي يحدّد سلوك الفرد والأمّة في الحياة.

٥. تطلُّع المسلمين إلى الفقهاء، وإقبالهم عليهم لتعرف نظم التشريع التي تحلّ لهم مشاكلهم الفردية والاجتماعية، لاسيما بعد انقراض عصر الصحابة، وكان الإمام الصادق عليه السلام في طليعة العلماء بالتشريع الإسلامي.

من نتائج دعوة الإمام الصادق عليه السلام

كان كل ما يهدف إليه الإمام: العقيدة بواقعها النقي الأصيل، ومن هنا كان تراثه الفكري يزخر بدفعه للعقيدة وغلغلتها في أعماق قلوب وذهنيات أبناء الأمة المسلمة، وبدفاعه عنهم الدفاع الممتلئ قوة وحرارة، والمحكم أساسًا وتركّزًا، بإيضاحها الإيضاح الكافي بمختلف الأساليب التي تتمشّى مع مختلف المستويات الذهنية للمسلمين، وبإيضاح وبيان التشريع الإسلامي في مرونته واستمراريته وشموله وتكامله وكماله.

فكان مما خلفه هذه الثروة الثقافية الضخمة الضافية، وأولئك العقائديين من تلامذته، أمثال: هشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، ومحمد بن مسلم، وزرارة بن أعين، وغيرهم.

تلك الثروة التي لا تزال قوة الدفع للعقيدة، وأولئك العلماء الذين لا يزالون قدوة الأجيال المسلمة في العمل والتضحية من أجل المبدأ وفي سبيل العقيدة.

المحتويات